

المحكم والمتشابه فى القرآن الكريم (١)

د. عبد الرحمن بن إبراهيم المطرودى

أستاذ مشارك فى قسم الدراسات الإسلامية

كلية التربية - جامعة الملك سعود

المبحث الخامس

آراء العلماء فى مفهوم المحكم والمتشابه :

لقد اختلف العلماء فى تحديد مفهوم المحكم والمتشابه ، وتعددت الآراء فى قوله (هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا) . (٢)

وقبل التعرض لتعاريف المحكم والمتشابه يحسن أن نبين النقاط الآتية :

١ - أن القرآن ينقسم قسمين وهما : المحكم والمتشابه ، وهما لفظان لمفهومين متقابلين ، لقول تعالى (منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات) .

٢ - أن فى الآية قراءتان متواترتان ، وهما قراءة الوقف على لفظ الجلالة « الله » ، وقراءة الوصل ، كما سبق فى قوله تعالى (وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا) .

ولذلك فإن المتشابه على القراءتين ينقسم قسمين ، وهما :

(أ) المتشابه الذى لا يعلمه إلا الله تعالى .

(ب) المتشابه الذى يعلمه الراسخون فى العلم .

(١) تكملة البحث الذى نشر فى العدد الأول . من السنة الثانية ، شوال ١٤١٤ هـ - أبريل

١٩٩٤ م . (الإصدار الرابع) ص ١٩٥ - ٢٢١ .

(٢) سورة آل عمران ٧ .

ولذلك فإن مفهوم المتشابه على قراءة الوصل غير مفهوم المتشابه على
قراءة الوقف ، والمحكم فى مقابل المتشابه على القراءتين ، ولذا فإن مفهوم
المحكم على قراءة الوصل غير مفهوم المحكم على قراءة الوقف .
والتأمل فى آراء العلماء فى تعريف المحكم والمتشابه يظهر له تعاريف
على ثلاثة اتجاهات ، وهى :

١ - التعاريف التى تتفق مع قراءة الوقف (١)

(أ) المحكم : هو ما عرف المراد منه إما بالظهور ، وإما بالتأويل .
المتشابه : هو ما استأثر الله تعالى بعلمه كقيام الساعة ، وخروج
الدجال .

وهو اختيار أهل السنة ، ورواية عن مالك ، ونسب للحنفية .

(ب) المحكم : هو ما عرف تأويله وفهم معناه وتفسيره .

المتشابه : هو ما لم يكن لأحد إلى علمه سبيل .

وهو مروى عن جابر بن عبدالله ، والشعبى ، وسفيان الثورى .

(ج) المحكم : هو الواضح المعنى الظاهر الدلالة إما باعتبار نفسه أو

باعتبار غيره .

المتشابه : هو ما لا يتضح معناه أو تظهر دلالته لا باعتبار نفسه ولا

باعتبار غيره .

وهو تعريف الشوكانى فى تفسيره .

(د) المحكم : هو الواضح الدلالة الظاهر الذى لا يحتمل النسخ .

(١) تفسير الإمام الطبرى ، ج ٦ ، ص ٣١٤ .

تفسير ابن كثير ، ج ١ ، ص ٣٤٤ - ٤٤٥ .

تفسير القرطبى ، ج ٢ ، ص ١٢٥١ - ١٢٥٢ .

الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ، ج ٢ ، ص ٢ .

المتشابه : هو الخفى الذى لا يدرك معناه عقلا ولا نقلا ، وهو ما استأثر
الله تعالى بعلمه كالحروف المقطعة فى أوائل السور .
وهو يعزى للأحناف .

إن هذه التعاريف تتفق مع قراءة الوقف ، ولكن لا تتفق مع مفهوم
المتشابه على قراءة الموصل ، الذى يعلمه العلماء الراسخون فى العلم ، وقد
زاد التعريف الرابع (د) على ذلك بحصر المحكم فى آيات الأحكام التى لا
تحتل النسخ دون غيرها مما اشتمل عليه القرآن ، كما أن المتشابه فى
تعريفه لم يكن فى مقابل المحكم ونقيضه .

٢ - التعاريف التى تتفق مع قراءة الوصل (١)

(أ) المحكم : هو الذى ليس فيه تصريف ولا تحريف مما وضع له .

المتشابه : ما فيه تصريف وتحريف وتأويل .

وهو مروى عن مجاهد وابن إسحاق وهو اختيار ابن عطية .

(ب) المحكم : هو ما كان قائماً بنفسه لا يحتاج إلى أن يرجع فيه إلى

غيره .

المتشابه : هو ما يرجع فيه إلى غيره .

حكى عن أحمد وحسنه النحاس .

(١) فتح القدير للإمام الشوكانى ، ج ١ ، ص ٣١٤ .

تفسير ابن كثير ، ج ١ ، ص ٣٤٤ - ٤٤٥ .

تفسير الإمام الطبرى ، ج ٦ ، ص ١٧٤ - ١٧٩ .

روح المعانى للألوسى ، ج ٣ ، ص ٨٢ .

تفسير القرطبى ، ج ٢ ، ص ١٢٥١ - ١٢٥٣ .

تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور ، ج ٣ ، ص ١٥٦ .

المستصفى للإمام الغزالى ، ج ١ ، ص ١٠٦ .

الإلتقان فى علوم القرآن للسيوطى ، ج ٢ ، ص ٢ .

(ج) المحكم : هو الواضح المعنى الذى لا يتطرق إليه إشكال ، مأخوذ من الإحكام ، وهو الإتقان .

المتشابه : نقيضه .

وهو قريب من رأى الطبيعى .

(د) المحكم : هو ما لا يحتمل إلا وجهاً واحداً .

المتشابه : هو ما يحتمل أوجهاً ، وإذا أبطلت وبقى واحد منها صار

محكماً .

مروى عن ابن عباس ، وعليه كثير من الأصوليين .

(هـ) المحكم : هو السديد النظم والترتيب الذى يفضى إلى إثارة

المعنى المستقيم من غير مناف .

المتشابه : هو الذى لا يحيط العلم بالمعنى المطلوب من حيث اللغة إلا

أن يقترن به أمانة أو قرينة .

وهو يعزى لإمام الحرمين .

(و) المحكم : ناسخه وحرامه وحلاله ، وفرائضه وما تؤمن به

ونعمل به .

المتشابه : منسوخه وأمثاله وأقسامه وما تؤمن به ولا نعمل به .

وهو مروى عن ابن عباس .

(ز) المحكم : هو الناسخ .

المتشابه : هو المنسوخ .

وهو مروى عن ابن مسعود ، وقتادة ، والربيع ، والضحاك .

إن هذه التعاريف تتفق - كما سبق - مع مفهوم المتشابه على قراءة

الوصل ، ولكنها لا تتفق مع مفهوم المتشابه على قراءة الوقف مما لا يعلمه

إلا الله تعالى .

كما أن التعريف السادس (و) فى تعريفه للمحكم والمتشابه قد خصهما ببعض أوصاف القرآن ، كما أن قوله : ما تؤمن به ولا نعمل به ، يحتمل كثيراً من أوجه التفسير ، والجدال فى صحة هذه العبارة ، كما يمكن أن يكون قد جمع فى تعريفه للمتشابه بين ما يمكن معرفته من قبل العلماء الراسخين فى العلم ، وما لا يمكن فى قوله : ما تؤمن به ولا نعمل به .

وكذلك التعريف السابع (ز) فإنه لا يتفق مع مفهوم المحكم والمتشابه على قراءة الوقف ، وأيضاً فإنه حصرهما فى بعض آيات الأحكام .

٣ - التعريف الذى يتفق مع القراءتين

بعد النظر والتأمل فى كثير من تعاريف العلماء للمحكم والمتشابه ، لم أجد منها ما يتفق مع القراءتين فى الآية السابعة من سورة آل عمران ، ولعل التعريفين الذين يتفقان معهما هما :

المحكم : ما لا يحتاج إلى دليل آخر فى بيانه .

المتشابه : ما يحتاج إلى دليل آخر فى بيانه ، وهو إما أن يكون متوافراً أو غير متوافر .

فإن كان الدليل المبين متوافراً لغة أو شرعاً أو عقلاً كان مما يعلمه العلماء الراسخون فى العلم كالألفاظ المشتركة ، والناسخ والمنسوخ ، والعام والخاص ، والمطلق والمقيد .

وإما إذا كان الدليل المبين غير متوافر ، فهو مما لا يعلمه إلا الله تعالى ، كحقائق الصفات لله تعالى ، وصفات الملائكة^(١) والجن ، والحروف المقطعة فى أوائل السور ، وقيام الساعة .

(١) إلا ما ثبت من رؤية النبى صلى الله عليه وسلم لجبريل على صورته .

المبحث السادس

منشأ التشابه

كما سبق في تحديد التشابه على القراءتين في آية (٧) من سورة آل عمران ، يتضح أن منشأ التشابه في القرآن إجمالاً على ثلاثة أقسام ، وهي (١) :

القسم الأول : التشابه من جهة اللفظ :

وهو ما كان خفاء معناه ودلالته ناشئاً من جهة اللفظ المفرد أو من جهة التركيب للألفاظ .

أما التشابه من جهة اللفظ المفرد فضربان ، هما :

(أ) الألفاظ الغريبة : وهي ما قل استعمالها مما يجعل إدراكها من

الكل متعذر ، ومنه ما روي عن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال :

« ما كنت أدري ما (فاطر السموات والأرض) (٢) حتى جاأنى

أعربيان يختصمان فى بئر فقال أحدهما : أنا الذى فطرتها » (٣)

أى أوجدتها أو أنشأتها .

(ب) الألفاظ المشتركة : وهي تحتل أكثر من وجه فى دلالتها

ومعناها ، كلفظ « اليمين » فى قوله تعالى (فراغ عليهم ضرباً

باليمين) (٤) .

فهل المراد : اليد اليمنى ، أم القوة ، أم القسم فى قوله تعالى

(وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين) (٥) .

أما التشابه من جهة التركيب للألفاظ فثلاثة أضرب ، وهي :

(١) المفردات للراغب الأصفهاني ، ص ١٢٦ - ١٢٧ .

مناهل العرفان للزرقاني ، ج ٢ ، ص ٢٧٨ - ٢٨١ .

(٢) سورة فاطر ١ .

(٣) انظر تفسير ابن كثير ، أول سورة فاطر .

(٤) سورة الصافات ٩٣ .

(٥) سورة الأنبياء ٥٧ .

(أ) ما كان على الاختصار فى الكلام ، فالإجاز فى الكلام مع إرادة كثير من المعانى ، قد يكون مصدراً للخفاء فى المعنى المراد .

كقوله تعالى (وإن خفتن ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع) (١) .

والمعنى وإن خفتن ألا تقسطوا فى اليتامى إذا تزوجتموهن فلا تتزوجوهن وأنكحوا ما طاب لكم من النساء ، وقيل غير ذلك .

(ب) ما كان على البسط فى الكلام ، وهو غير الإطناب الذى يعتبر عيباً فى الكلام .

كقوله تعالى (ليس كمثله شئ وهو السميع البصير) (٢) .

فالكاف قد توهم بإثبات المثلية لله تعالى ، تعالى الله عن ذلك ، لأن المعنى يكون (ليس مثل مثله شئ) والنفى يقتضى الإثبات ، وهذا كله غير مراد بشواهد كثيرة من القرآن ، ولذلك فإن قوله تعالى (ليس كمثله شئ) أبلغ من قولنا : « ليس مثله شئ » على عادة العرب واستعمالهم ، ولعل ذلك مما يشعر ببعد المسافة بين الخالق والمخلوق ، لأن المثل منفى ، ونفى مثل ذلك المنفى يوحى بتأكيد ذلك ، والله أعلم .

(ج) ما كان على ترتيب ونظم الكلام ، وهو يتعلق بالتقديم والتأخير فيه ، كقوله تعالى (الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً قيماً لينذر بأساً شديداً) (١) .

فلفظ « قيماً » هل حقه أن يكون كما هو فى سياق الآية ، أم حقه التقديم ، والتقدير : الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب قيماً .

(١) سورة النساء . ٣ .

(٢) سورة الشورى ١١ .

(٣) سورة الكهف ١ - ٢ .

القسم الثانى : المتشابه من جهة اللفظ والمعنى :

وينقسم إلى خمسة أضرب . وهى :

(أ) ما كان التشابه من جهة الكمية كالعموم والخصوص . قال تعالى
(وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن
يشاء ويعذب من يشاء) (١) .

وقال تعالى (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها
ما اكتسبت) (٢) .

فإن الآية الثانية مخصصة للآية الأولى .

(ب) ما كان التشابه من جهة الكيفية كالوجوب والندب والإباحة أو
التحريم والكراهية .

كقوله تعالى (فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث
ورباع) (٣) .

وقال تعالى (وإذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين
فارزقوهم منه وقولوا لهم قولاً معروفاً) (٤) .

فهل الأمر فى الآيتين للوجوب أم للندب أم للإباحة .

(ج) ما كان التشابه من جهة الزمان كالناسخ والمنسوخ كقوله تعالى

(يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم

صدقة) (٥)

(١) سورة البقرة ٢٨٤ .

(٢) سورة البقرة ٢٨٦ .

(٣) سورة النساء ٣ .

(٤) سورة النساء ٨ .

(٥) سورة المجادلة ١٢ .

وقال تعالى (أشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات فإذا لم تفعّلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله) (١) .

هل بين الآيتين من تعارض ، وهل هما خبر أم إنشاء ، وهل الآية الثانية متأخرة عن الآية الأولى .

ولذلك قال كثير من العلماء بنسخ الآية الأولى بالآية الثانية .

(د) ما كان التشابه من جهة الزمان والمكان ولذلك يرتبط فهم الآية بالبيئة الاجتماعية وما تتصف به من عادات وتقاليد ومبادئ واصطلاحات فى ذلك الزمان الذى أنزلت فيه الآية ، ومكانه .

كقوله تعالى (إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما) (٢) .

وقوله تعالى (وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون) (٣) .

وقوله تعالى (إنما النسئ زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله) (٤) .

(هـ) ما كان التشابه من جهة الشروط وهو ما كان التشابه فيه عائد إلى مناط الأدلة كشروط الوضوء ، وشروط الصلاة ، والزكاة والحج .

(١) سورة المجادلة ١٣ .

(٢) سورة البقرة ١٥٨ .

(٣) سورة البقرة ١٨٩ .

(٤) سورة التوبة ٣٧ .

كقوله تعالى (الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم
ينفقون) (١) .

فالآية ليست كافية في بيان ما يجب أن تكون عليه الصلاة من
كيفية وصفة وشروط .

القسم الثالث : المتشابه من جهة إدراك الحقائق الغائبة :

وهو يتعلق بالحقائق الغائبة عن حواس الإنسان ، فالتخيل والتصوير
عنده لا يتعد عن المحسوسات في عالمه ، والغائب غير الشاهد ، كحقيقة
الذات الإلهية ، وصفات الله تعالى وصفات الجنة والنار .

أما المعنى والدلالات فالإنسان يدرك شيئاً ما منها بما يتفق مع قدراته
وإمكانياته ، حيث إن الله تعالى قد قرب معانيها للأفهام بما يتناسب مع
ذلك ، والله أعلم .

قال تعالى (ليس كمثله شئ وهو السميع البصير) (٢) .

المبحث السابع

أنواع المتشابه :

مما سبق من دلالة القراءتين في قوله تعالى (وما يعلم تأويله إلا الله
والراسخون في العلم) يتضح أن المتشابه ثلاثة أنواع ، وهي (١) :

١ - المتشابه الحقيقي

وهو ما لا يعلمه أحد من البشر كالعلم بحقيقة ذات الله تعالى ،
وحقائق صفاته تعالى ، وصفات الجنة والنار والملائكة وغير ذلك مما استأثر
الله بعلمه من الحقائق الغائبة عن حواس الإنسان .

(١) سورة الشورى ١١ .

(٢) سورة البقرة ٣ .

أما بالنسبة لمعاني ودلالات تلك الصفات فإنه يعلم بشئ ما منها يحتاج إليه ، ويتفق مع مؤهلات الإنسان فى هذه الحياة الدنيوية ، فالله تعالى موصوف بأنه « السميع » و « البصير » ولهما معان ودلالات يعلم الإنسان بشئ ما منها ولكن من طبيعة الإنسان أن لا يتخيل بعيداً عن المحسوسات لديه ولذا قال تعالى (ليس كمثله شئ وهو السميع البصير) (٢) .

٢ - المتشابه الإضافى

وهو يتناول الآيات التى تحتاج فى إيضاها وبيانها إلى دليل آخر من الكتاب أو السنة أو اللغة أو معارف الإنسان البشرية وغير ذلك كالعام والخاص والناسخ والمنسوخ ، وكالألفاظ الغريبة أو المشتركة ، وكذا الإعجاز العلمى فى القرآن .

وهذا النوع متشابه من جهة ، ومحكم من جهة أخرى على القراءتين ، فهو محكم على قراءة الوقف ، متشابه على قراءة الوصل ، فالآيات القرآنية التى تحتاج إلى دليل آخر فى إيضاها وبيان مغانيتها ، وتحديد المعنى المراد ، فى البداية ستكون مصدراً للاشتباه والالتباس والخطأ فتحتاج إلى العالم بذلك ليزيل الاشتباه وتحديد المعنى المراد ، ولذلك فإن هذه الآيات من هذا الوجه تعتبر من المتشابه .

ولكن بعد زوال الاشتباه عن طريق العلماء وتحديد المعنى المراد تكون من الآيات الواضحات البيّنات ، ولذلك تعتبر من هذا الوجه من المحكم .

(١) انظر تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور . ج ٣ ، ص ١٥٦ - ١٥٧ .

(٢) سورة الشورى ١١ .

٣ - المتشابه الخفى

وهو يتناول المعانى العالية الدقيقة الخفية مما تفيض به القلوب ، التى يدركها العلماء الراسخون فى العلم من سياق الآيات القرآنية عند تلاوتها وتدبرها دون أن تساق لتلك المعانى .

المبحث الثامن

إمكانية معرفة المتشابه :

مما سبق فى مبحث « أنواع المتشابه » وكذلك مبحث « منشأ المتشابه » يتضح أن معرفة المتشابه على قسمين ، وهما :

١ - ما يمكن معرفته

وهو المتشابه الخفى ، والمتشابه الإضافى وهما يشتملان على التفسير والبيان للمتشابه من جهة اللفظ كالألفاظ الغريبة أو المشتركة .
والمتشابه من جهة اللفظ والمعنى معاً كالعامة والخاص والناسخ والمنسوخ .

وكذلك ما يجده العلماء الراسخون فى العلم فى قلوبهم من المعانى العالية الخفية الزائدة على ظاهر الآيات القرآنية المستنبطة من سياق الآيات عند تلاوتها وتدبرها ، والتأمل فى المعانى ودلالاتها مما لا يدركه كل قارئ للقرآن .

وذلك مما تدل عليه القراءتان فى آية سورة آل عمران ، كما سبق .

٢ - ما لا يمكن معرفته

وهو المتشابه الحقيقي ، ويتناول إدراك الحقائق الغائبة عن حواس الإنسان ، مما يتعلق بالغيبيات كإدراك حقيقة الذات الإلهية ، وحقائق صفاته تعالى ، وصفات الجنة والنار (١) .

وهذا مما تشير إليه قراءة الوقف في آية سورة آل عمران ، أما معرفة العلماء لشيء ما من معاني ودلالات تلك الصفات للحقائق الغائبة ، كصفات الله تعالى ، وصفات الجنة والنار ، فبما يتفق مع قدراتهم وإمكانياتهم البشرية المحدودة بحدود المحسوسات في دنياهم .

قال تعالى (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) (٢) .

وقال تعالى (في جنة عالية لا تسمع فيها لاغية فيها عين جارية فيها سرر مرفوعة وأكواب موضوعة وفخار مصفوفة وزرابى مبثوثة) (٣) .

بل إن في الحياة الدنيا في عصر دون عصر من الصناعات والإمكانات ما لا يمكن إدراك حقائق صفاتها في عصر آخر ، وإن أدرك بعضاً من معانيها ودلالاتها ، كالكهرباء والاتصالات والكمبيوتر في عصرنا بالنسبة للعصور السابقة ، وإذا كان هذا إدراك الإنسان في دنياه أو عالمه ، فما حاله إذا تجاوز ذلك ؟ والله الهادي إلى سواء السبيل .

(١) انظر : تفسير ابن كثير ، ج ١ ، ص ٣٤٥ - ٣٤٧ .

تفسير الطبري ، ج ٦ ، ص ٢٠١ - ٢٠٣ .

تفسير القرطبي ، ج ٢ ، ص ١٢٥٨ - ١٢٦١ .

تفسير فتح القدير للشوكاني ج ٢ ص ٣١٥ - ٣١٧ .

(١) سورة الشورى ١١ .

(٢) سورة الغاشية ١٠ - ١٦ .

المبحث التاسع

تأويل المتشابه من آيات الصفات ومناهجه :

لقد سبق بيان أن إدراك الحقائق الغائبة عن حواس الإنسان لا يمكن إدراكها عن طريق الصفات لها ، فكيف يكون الأمر إذا تعلق بذات الله تعالى أو بصفاته أو بعالم آخر غير عالمه المشاهد كالجنة والنار والملائكة ؟ . وإن كثيراً من العلماء قد حصر بحثه في المتشابه بآيات الصفات دون غيرها ، وقد اتفقوا على النقاط التالية :

١ - أن الأصل في تأويل الآيات المتشابهات هو إرجاعها إلى الآيات المحكمات .

قال تعالى (هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات) (١) .

٢ - تنزيه الخالق سبحانه وتعالى عن المماثلة أو المشابهة لمخلوقاته .

قال تعالى (ليس كمثله شئ وهو السميع البصير) (٢) .

٣ - أن الأصل في إثبات الأسماء والصفات لله تعالى هو الكتاب والسنة .

٤ - أن المتشابهات من آيات الصفات قد لا تحتل إلا وجهاً واحداً لدلالة الآيات المحكمات على ذلك (٣) .

كقوله تعالى (يا حسرتى على ما فرطت فى جنب الله) (٤) .

(١) سورة آل عمران ٧ .

(٢) سورة الشورى ١١ .

(٣) مناهل العرفان للزرقانى ، ج ٢ ، ص ٢٨٦ .

دراسات فى علوم القرآن للدكتور محمد بكر إسماعيل ، ص ٢٢١ .

(٤) سورة الزمر ٥٦ .

فالمراد بـ « جنب الله » أى حق الله وما يجب له .
وقوله تعالى (وهو معكم أين ما كنتم) (١) .
فالمراد بـ « وهو معكم » الإحاطة بالعلم والقدرة والإرادة .
وأما ما تعددت فيه أوجه الاحتمال فقد اختلف العلماء فيه على ثلاثة
اتجاهات ، وهى :

الأول : مذهب السلف

فالسلف رضى الله عنهم يرون أن صفات الله تعالى مفهومة المعنى
والدلالة بما يتفق مع لسان العرب ، والتوقف فيما يتعلق بالكيفية والكنه ،
لأن ذلك مما يحتاج إلى دليل ، ولا دليل عليه من نص شرعى أو مشاهدة له
أو لمثله ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، بل إن النصوص الشرعية توجب
التوقف عن ذلك .

كقوله تعالى (ليس كمثله شئ وهو السميع البصير) (٢) .

فالله تعالى يتصف بأنه « السميع » و « البصير » وهما مفهومان فى
المعنى بما تقتضيه اللغة ، ولكن هذا الإثبات يجب أن يصاحبه تنزيه لله
تعالى عن المشابهة أو المماثلة لخلقه تعالى ، فقال تعالى قبلهما (ليس
كمثله شئ) .

ولذلك فإن إدراك الحقيقة أو الكيفية أو الكنه أمر ليس للإنسان قدرة
أو طاقة عليه .

قال تعالى (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما) (٣) .

(١) سورة الحديد ٤ .

(٢) سورة الشورى ١١ .

(٣) سورة طه ١١٠ .

وروى عن أم سلمة فى قوله تعالى (الرحمن على العرش استوى) (١)
أنها قالت : « الكيف غير معقول والاستواء غير مجهول ، والإقرار به من
الإيمان ، والجحود به كفر » (٢) .

كما روى عن الإمام مالك أنه سأله رجل عن الاستواء ، فقال : «
الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والسؤال عنه بدعة ، وأظنك رجل
سوء ، أخرجوه عنى » (٣) .

وأن السلف الصالح كمالك والأوزاعى والليث بن سعيد والشافعى
وأحمد وإسحاق بن راهويه وغيرهم من الأئمة يرون إمرار الآيات المتشابهات
من آيات الصفات من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل (٤) .

وقال الإمام ابن الصلاح : « على هذه الطريقة مضى صدر الأمة
وساداتها وإياها اختار أئمة الفقه وقاداتها ، وإليها دعا أئمة الحديث
وأعلامه ، ولا أحد من المتكلمين من أصحابنا يصدف عنها وبأبها » (٥) .

كما استدلل الإمام الفخر الرازى على وجوب التوقف عن الخوض فى
تعيين التأويل بعد الاعتقاد بأن ظاهر اللفظ محال (٦) لقيام الأدلة العقلية

(١) سورة طه ٥ .

(٢) انظر الرسائل المنيرية - عقيدة السلف للصابونى ، ج ١ ، ص ١١٠ .

(٣) الإتيقان للسيوطى ، ج ٢ ، ص ٨ .

البرهان فى علوم القرآن للزركشى ، ج ٢ ، ص ٧٨ .

(٤) فضل علم السلف على الخلف للإمام ابن رجب الحنبلى ، ص ١٩ - ٢٠ .

تفسير ابن كثير ، ج ٢ ، ص ٢٢٠ .

الأسماء والصفات للبيهقى ، ص ٤٠٧ .

(٥) الإتيقان للسيوطى ، ج ٣ ، ص ٥١ .

(٦) إن مذهب السلف أن ظاهر اللفظ بما يقتضيه حب اللغة مراد دون تكييف أو

تشبيه أو تعطيل .

على ذلك حيث يقول : « صرف اللفظ عن الراجع إلى المرجوح لا بد فيه من دليل منفصل ، وذلك الدليل المنفصل إما أن يكون لفظياً وإما أن يكون عقلياً .

أما القسم الأول فنقول : هذا إنما يتم إذا حصل بين ذينك الدليلين اللفظيين تعارض وإذا وقع التعارض بينهما فليس ترك ظاهر أحدهما رعاية لظاهر الآخر أولى من العكس ، اللهم إلا أن يقال : إن أحدهما قاطع فى دلالتة والآخر غير قاطع فحينئذ يحصل الرجحان ، أو يقال : كل واحد منهما وإن كان راجحاً إلا أن أحدهما يكون أرجح وحينئذ يحصل الرجحان إلا أن نقول : أما الأول فباطل ، لأن الدلائل اللفظية لا تكون قاطعة البتة ، لأن كل دليل لفظى فإنه موقوف على نقل اللغات ، ونقل وجوه النحو والتصريف ، وموقوف على عدم الاشتراك وعدم المجاز ، وعدم التخصيص ، وعدم الإضمار ، وعدم المعارض النقلى ، وكان ذلك مظنون ، والوقوف على المظنون أولى أن يكون مظنوناً ، فثبت أن شيئاً من الدلائل اللفظية لا يكون قاطعاً .

وأما الثانى وهو أن يقال : أحد الدليلين أقوى من الدليل الثانى وإن كان أصل الاحتمال قائماً فيهما معاً ، فهذا صحيح ، ولكن على هذا التقدير يصير صرف الدليل اللفظى عن ظاهره إلى المعنى المرجوح ظنياً ، ومثل هذا لا يجوز التعويل عليه فى المسائل الأصولية ، بل يجوز التعويل عليه فى المسائل الفقهية ، فثبت بما ذكرناه أن صرف اللفظ عن معناه الراجع إلى معناه المرجوح فى المسائل القطعية لا يجوز إلا عند قيام الدليل القطعى العقلى على أن ما أشعر به ظاهر اللفظ محال ، وقد علمنا فى الجملة أن استعمال اللفظ فى معناه المرجوح جائز عند تعذر حمله على ظاهره ، فعند هذا يتعين التأويل فظهر أنه لا سبيل إلى صرف اللفظ عن معناه الراجع إلى معناه المرجوح إلا بواسطة إقامة الدلالة العقلية على أن

معناه الراجع محال عقلا ، ثم إذا أقامت هذه الدلالة وعرف الكلف أنه ليس مراد الله تعالى من هذا اللفظ ما أشعر به ظاهره ، فعند هذا لا يحتاج إلى أن يعرف أن ذلك المرجوح الذى هو المراد ماذا ؟ لأن السبيل إلى ذلك إنما يكون بترجيح مجاز على مجاز وترجيح تأويل على تأويل ، وذلك الترجيح لا يمكن إلا بالدلائل اللفظية والدلائل اللفظية على ما بينا ظنية لا سيما الدلائل المستعملة فى ترجيح مرجوح على مرجوح آخر يكون فى غاية الضعف ، وكل هذا لا يفيد إلا الظن الضعيف ، والتعويل على مثل هذه الدلائل فى المسائل القطعية محال » (١) .

ويقول أيضاً : « أن اللفظ إذا كان له معنى راجح ، ثم دل دليل أقوى منه على أن ذلك الظاهر غير مراد ، علمنا أن مراد الله تعالى بعض مجازات تلك الحقيقة ، وفى المجازات كثرة ، وترجيح البعض على البعض لا يكون إلا بالترجيحات اللغوية ، والترجيحات اللغوية لا تفيد إلا الظن الضعيف ، فإذا كانت المسألة قطعية يقينية ، كان القول فيها بالدلائل الظنية الضعيفة غير جائز ، ومثاله قال الله تعالى (الرحمن على العرش استوى) (٢) دل الدليل أنه يمتنع أن يكون الإله فى المكان ، فعرفنا أنه ليس مراد الله تعالى من هذه الآية ما أشعر به ظاهرها ، إلا أن فى مجازات هذه اللفظة كثرة ، فصرف اللفظ إلى البعض دون البعض لا يكون إلا بالترجيحات اللغوية الظنية ، والقول بالظن فى ذات الله تعالى وصفاته غير جائز بإجماع المسلمين ، وهذه حجة قاطعة فى المسألة والقلب الخالى عن التعصب يميل إليه ، والفطرة الأصلية تشهد بصحته ، وبالله التوفيق » (٣) .

(١) التفسير الكبير للإمام الفخر الرازى ، - ٧ ، ص ١٨٢ - ١٨٣ .

(٢) سورة طه ٥ .

(٣) التفسير الكبير للإمام الفخر الرازى ، ج ٧ ، ص ١٩٠ .

وكذلك صفات الجنة والنار والملائكة ، نفهم معانيها حسب ما تقضيه اللغة على لسان العرب فنعلم ونؤمن بها دون قياس للغائب على الشاهد أو الحقائق الغائبة على الحقائق المشاهدة ، لأن إدراك نفس تلك الحقائق الغائبة لا يعلمها إلا الله .

كقوله تعالى (أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى) (١) .

وقوله تعالى (الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع) (٢) .

الثاني : مذهب الخلف

ويسمى مذهب المؤولة ، وهم فريقان :

(١) **الفريق الأول** : وهو يرى حمل اللفظ « الصفات » الذى استحال حمله على ظاهره - على حقيقته اللغوية - على أقرب مجاز لغوى له ، مما يسوغ لغة ، ويليق بالله تعالى عقلا وشرعاً ، ليوصف الله تعالى بصفات معلومة على التعيين .

وذلك بحجة دفع الإهمال لتلك الصفات ، بسبب التفويض والتوقف فى تحديد مفهوم لها ، أو حمل الصفات على ظاهرها الذى يقتضى - عندهم - التشبيه والتجسيم لله تعالى ، وهو محال ، وهذا كله يدعو إلى الحيرة بين المسلمين .

ولذلك فإن التأويل فيه صرف للفظ من مقام الإهمال الموجب للحيرة إلى مقام اللفظ المفهوم المعلوم ، وهو حمل لكلام الله تعالى على معنى صحيح لغة وعقلا وشرعاً .

(١) سورة محمد ١٥ .

(٢) سورة فاطر ١ .

وقد ظهر هذا المنهج فى التأويل بعد أن كثر الجهل بأصول الدين ،
والخوض فى آيات الصفات ، وتصدى علماء السلف لذلك بالبيان للمعنى
المراد على ما يقتضيه لسان العرب ، ثم تبعهم بعض علماء الخلف بالبيان
للآيات المتشابهات من آيات الصفات ثم كثر الخوض والجدال فى الشبهات
التي اعترضت لهم فى هذا المقام إلى أن وصلوا إلى القول بالتأويل على هذا
المذهب وغيره (١) .

وقد أخذ بهذا المذهب ابن برهان ، وإمام الحرمين إلا أنه رجع عنه ،
وجماعة من المتأخرين .

ومن أمثلة ذلك :

قال تعالى (الرحمن على العرش استوى) (٢) فالمعنى عندهم يحمل
على أقرب المجازات اللغوية ، وهو أن « استوى » بمعنى علا وارتفع دون
تمثيل أو تكييف أى علا إمره وقدرته ، أو أن « استوى » بمعنى القهر
والغلبة أى غلب على العرش وقهره (٣) .

وقال تعالى (يد الله فوق أيديهم) (٤) أى قدرة الله تعالى فوق
قدرتهم .

وقال تعالى (والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما
يشركون) (٥) أى « بيمينه » أى قدرته .

وقال تعالى (وجاء ريك والملك صفاً صفاً) (٦) أى وجاء أمر ريك .

(١) فرقان القرآن بين صفات الخالق وصفات الأكوان لسلامة القضاى ، ص ٩٥ - ٩٦ .

انظر : المحكم والمتشابه للدكتور محمد التومى ، ص ٤٥ .

مناهل العرفان للزرقانى . ج ٢ ، ص ٢٨٩ .

(٢) سورة طه ٥ .

(٣) مناهل العرفان للزرقانى . ج ٢ ، ص ٢٨٩ .

(٤) سورة الفتح ١٠ .

(٥) سورة الزمر ٦٧ .

(٦) سورة الفجر ٢٢ .

(ب) الفريق الثانى :

وهم الأشاعرة ، وهم يرون حمل المتشابهات من الصفات على صفات أو معان تليق بالله تعالى ، وذلك عن طريق صرفها عن ظاهرها المستحيل على الله تعالى عقلا وشرعاً ، دون تعيين أو تفصيل ، وتسمى صفات سمعية لدلالة النقل - السمع - عليها لا العقل .

ولذلك فإن لله تعالى صفات معلومة بالتعيين لدلالة الشرع والعقل عليها كالحياة والعلم والسمع والبصر .

كما أن لله تعالى صفات أخرى سمعية غير معلومة بالتعيين ، فتكون معلومة من جهة ، وغير معلومة من جهة الحقيقة والكنه والكيف الذى يوجب التفويض والتوقف من جهة أخرى (١) .

ومن أمثلة ذلك ما قاله الإمام أبو الحسن الأشعري فى قوله تعالى (الرحمن على العرش استوى) (٢) : « إن الله فعل فى العرش فعلا سماه استواء ، كما فعل فى غيره فعلا سماه رزقاً ، ونعمة أو غيرهما من أفعاله » (٣) .

وقال تعالى (يد الله فوق أيديهم) (٤) .

قالوا إن « اليد » صفة جاءت عن طريق النقل يظهر منها معنى « القدرة » إلا أن القدرة أعم و « اليد » أخص ، فيثبتون لله تعالى « اليد » كصفة سمعية دون إدراك لحقيقتها وكنهها .

والمعتزلة يرون صرف اللفظ الذى استحال ظاهره على أصل من أصولهم الخمسة - وهو التوحيد - إلى معان تليق بالله تعالى ،

(١) مناهل العرفان للزرقانى ، ج ٢ ، ص ٢٨٩ .

المحكم والمتشابه للدكتور محمد التومى ، ص ٤٥ - ٤٦ .

(٢) سورة طه ٥ .

(٣) الأسماء والصفات لليهقى ، ص ٤٢٠ .

(٤) سورة الفتح ١٠ .

مع نفيهم الصفات لله تعالى ، حيث يرون أنها أسماء ذات لله تعالى فينفون عن الله تعالى صفات العلم والقدرة والإرادة والحياة ، حذراً من تعدد القديم ، كما ينفون السمع والبصر والكلام لله تعالى لأنها من عوارض الأجسام (١) .

الثالث : مذهب المتوسطين بين السلف والخلف

وهو ينسب إلى الإمام ابن دقيق العيد حيث يرى أن التأويل إما أن يكون قريباً في لسان العرب ، واستعمالاته ، أو يكون بعيداً ، فإن كان قريباً أخذ به وإلا فالتوقف عنه والإيمان به على المعنى الذي أريد به ، مع تنزيه الخالق سبحانه وتعالى (٢) .

واختلف العلماء في التأويلين إذا كانا متساويين في القرب والبعد (٣) .

ومن أمثلة ذلك : قال تعالى (واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرِقون) (٤) .

وقال تعالى (وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني) (٥) .
فقوله تعالى « بأعيننا » و « على عيني » بمعنى الإحاطة بالعلم والحراسة والحفظ (٦) .

وقال تعالى (يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله) (٧) .
أي ما فرطت في حق الله وما يجب له (٨) .

(١) المقاصد للفتازاني ، ج ٢ ، ص ٥٤ .

(٢) الإتيان للسيوطي ، ج ٣ ، ص ١٦ .

(٣) الفرقان بين صفات الخالق وصفات الأكوان لسلامة القضاء ، ص ٩٦ .

فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة للغزالي ، ص ١٢ .

المحكم والمتشابه للدكتور محمد التومي ، ٤٦ .

(٤) سورة هود ٣٧ .

(٥) سورة طه ٣٩ .

(٦) تفسير القاسمي ، ج ٩ ، ص ٣٤٣٤ - ٣٤٣٥ ، ج ١١ ، ص ٤١٧٨ .

(٧) سورة الزمر ٥٦ .

(٨) الإتيان للسيوطي ، ج ٣ ، ص ١٦ .

المبحث العاشر

التأويل للحروف المقطعة فى أوائل السور :

لقد جاءت الحروف المقطعة فى أوائل تسع وعشرون سورة من سور القرآن ، واختلف العلماء فى تأويلها على منهجين ، وهما (١) :

١ - مذهب التفويض والتوقف

وهو يرى أن هذه الحروف سر من أسرار الله تعالى فى كتابه ، أى مما استأثر الله تعالى بعلمه ، حيث لم يصح دليل على تفسيرها ، ولا قول على الله تعالى بغير علم .

٢ - مذهب التأويل

وقد تعددت الآراء فى ذلك ، وهى بإيجاز :

(أ) قيل : إنها من أسماء سور القرآن وهو قول ساقط للتشابه والتماثل بين بعض سور القرآن فى الحروف التى افتتحت بها كسور البقرة وآل عمران .

قال تعالى (ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين) (٢) .

وقال تعالى (ألم الله لا إله إلا هو الحى القيوم) (٣) .

(ب) وقيل : إنها من أسماء الله تعالى ، بل وقال آخرون : إن كل حرف منها يعبر عن اسم أو صفة لله تعالى ، وهما قولان باطلان ، لا دليل صحيح عليهما .

(ج) وقيل : إن ذلك مما أقسم الله تعالى به ، وهو قول ساقط لا

يتفق مع المعهود عن العرب فى صيغ القسم .

(١) تفسير الإمام الطبرى ، ج ١ ، ص ٥٧ .

تفسير ابن كثير ، ج ١ ، ص ٥٩ - ٦٠ .

لباب التأويل فى معانى القرآن للخازن ، ج ١ ، ص ٢٦ .

الإتقان للسيوطى ، ج ٣ ، ص ٣٤ - ٣٥ .

(٢) سورة البقرة ١ - ٢ .

(٣) سورة آل عمران ١ - ٢ .

(د) وقيل : إنها للتحدى وبيان إعجاز القرآن ، وأنه كتاب منزل من عند الله تعالى ، لا من صنع البشر ، حيث إنه مؤلف من أجناس هذه الحروف - على لغة العرب - وهم أفصح العرب مع عجزهم عن الإتيان بمثله ، لإثبات صحة دعواهم فى الإنكار للقرآن ، وتكذيب النبى صلى الله عليه وسلم ، ولذلك جاء بعد هذه الحروف المقطعة الانتصار للقرآن .

كقوله تعالى (ألمص كتاب أنزل إليك فلا يكن فى صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين) (١) .

وقول تعالى (ألى تلك آيات الكتاب الحكيم) (٢) .

ولكن ذلك ليس مطرداً فى جميع السور القرآنية التى افتتحت بالحروف المقطعة ، حيث إن سورة العنكبوت لم يلهها الانتصار للقرآن .

قال تعالى (ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون) (٣) .

(هـ) وقيل : إنها للتنبيه ، أى لتنبيه السامع لسماع القرآن عند سماعه ، وقد جاءت على غير معهود العرب مبالغة فى جلب الانتباه إلى الدعوى إلى الإيمان بالله ورسوله وكتابه (٤) ، والله أعلم .

(١) سورة الأعراف ١ - ٢ .

(٢) سورة يونس ١ .

(٣) سورة العنكبوت ١ - ٢ .

(٤) دراسات فى علوم القرآن للدكتور محمد بكر إسماعيل ، ص ٣٣٥ - ٣٤٤ .

منهل العرفان للزرقانى ، ج ٢ ، ص ١٨٣ - ١٨٥ .

التفسير الكبير للإمام الفخر الرازى ، ج ٢ ، ص ٦ .

المبحث الحادى عشر

تاويل المتشابه بين الامر والنهى :

إن المتشابه على دلالة القراءتين - كما سبق - أنواع ، فهناك المتشابه الحقيقى ، وهنالك المتشابه الإضافى والخفى .

كما أن منشأ المتشابه على دلالة القراءتين ثلاثة أقسام ، وهى : المتشابه من جهة اللفظ ، والمتشابه من جهة اللفظ والمعنى ، والمتشابه من جهة إدراك حقائق الأشياء الغائبة ، كما سبق تفصيله .

وإن العلماء الراسخين فى العلم هم الذين يدركون ذلك ، فالعلم والجهل أمران مختلفان اختلاف تضاد ، وكذا الجد والاجتهاد والعمل يقابله التقاعس والكسل والتقليد الأعمى والاستهتار والاستهزاء ، سواء كان الأمر يتعلق بالقدرات العقلية أو النفسية أو العمليات السلوكية الخارجية .

ولذلك كان تفسير القرآن وبيان معانيه ودلالاته بالنسبة للعلماء فرض كفاية ، لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب فالعلماء الراسخون فى العلم هم الذين يعرفون أنواع المتشابه ، ومنشأ التشابه فى القرآن والسنة النبوية ، وإن اختلفوا فى تحديد مواطنه ومواضعه ، وخاصة فى المتشابه الحقيقى الذى يتعلق بإدراك أو التعبير عن حقائق الأشياء الغائبة عن حواس الإنسان .

ولا شك أن العلم بالمتشابه من القضايا المبنية على النظر والاجتهاد ، والتأمل والتفكير فى النصوص القرآنية ، وأوجه الاصطلاح فى اللغة العربية ، والمعارف والمعلومات المتنوعة التى تحيط بالإنسان ، وغير ذلك .

ولذلك فالعلم بالمتشابه من القضايا النسبية ، فالعلماء فى درجات مختلفة على المستوى الرأسى والأفقى . فما يدركه عالم قد لا يدركه عالم آخر ، ولكنه إذا جهل به آمن به ، وبما يتفق مع الآيات المحكمة ، وفوض علم

المتشابه إلى الله تعالى مع الجهد والعمل للعلم به بالنظر والتأمل والتفكير بنفسه ، أو عن طريق عالم آخر .

ولذا نجد أن بعض الصحابة والتابعين رضى الله عنهم قد توقفوا على تفسير آية أو لفظ من القرآن دون علم .

عن أبى بكر رضى الله عنه أنه قال عندما سئل عن معنى قوله تعالى (وفاكهة وأبا) (١) : « أى سماء تظلنى وأى أرض تقلنى إن أنا قلت فى كتاب الله تعالى ما لا أعلم » (٢) .

فالتعرض للمتشابه يمكن أن يكون من أحد فريقين ، وهما :

الفريق الاول : العلماء الراسخون فى العلم ، وهم الذين يملكون العلم بالقرآن بمقوماته وأدواته ، والعمل به ، فهم المهتدون والمتبعون فى بيان معانى القرآن ودلالاته .

ولذا نجد كثيرا من النصوص الشرعية التى تدل على الحث على طلب العلم ، والعمل به .

قال تعالى (ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه وقل ربه زدنى علما) (٣) .

وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا فى المجالس فافسحوا يفسح الله لكم وإذ قيل لكم انشزوا فانشزوا يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير) (٤) .

وقال تعالى (قل هل يستوى الذين يعملون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب) (٥) .

(١) سورة عبس ٣١ .

(٢) الإتيان للسيوطى ج ١ ، ص ١١٥ .

(٣) سورة طه ١١٤ .

(٤) سورة المجادلة ١١ .

(٥) سورة الزمر ٩ .

كما جاءت النصوص أيضاً تدل على الحث على اتباع العلماء .

قال تعالى (فسئلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) (١) .

وقال تعالى (وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لا تبعتم الشيطان إلا قليلاً) (٢) .

وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً) (٣) .

الفريق الثانى : وهم الجهال والضالون ، والمضلون ، الذين يتطرقون أو يقومون بالتفسير للقرآن عن غير علم ، جراءة على الله تعالى وعلى كتابه العزيز بما يتفق مع أهوائهم ، وشهواتهم المريضة ، أو لإثارة الفتنة بين العامة من المسلمين بالتشكيك والتلبيس فيما غمض عليهم من معانيه ودلالاته ، أو للصد عن سبيل الله تعالى بالاستهزاء والسخرية والكفر فى آياته سبحانه وتعالى .

وقد جاءت كثير من النصوص الشرعية التى تحذر من الخوض فى كتاب الله تعالى من غير علم ، ومن العلم بالقرآن تفسير القرآن بالقرآن ، أى إرجاع المتشابه منه إلى الآيات المحكمات .

ولذلك فإن الخوض فى المتشابه من القرآن دون علم به من صفات المنافقين والكفار - اليهود والنصارى - والمشركين .

قال تعالى (هأنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون) (٤) .

(١) سورة النحل ٤٣ ، والأنبياء ٧ .

(٢) سورة النساء ٨٣ .

(٣) سورة النساء ٥٩ .

(٤) سورة آل عمران ٦٦ .

وقال تعالى (ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً) (١) .

وقال تعالى (يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون) (٢) .

وقال تعالى (فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا) (٣) .

وقال تعالى (فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ليضل الناس بغير علم إن الله لا يهدى القوم الظالمين) (٤) .

كما جاءت النصوص الشرعية - أيضاً - التى تدل على حث المسلمين على اجتنابهم والبعد عنهم .

قال تعالى (وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون إن ربك هو أعلم من يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) (٥) .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : « تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم (هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب) (٦) قالت : قال رسول

(١) سورة الإسراء ٣٦ .

(٢) سورة آل عمران ٧١ .

(٣) سورة آل عمران ٧ .

(٤) سورة الأنعام ١٤٤ .

(٥) سورة الأنعام ١١٦ ، ١١٧ .

(٦) سورة آل عمران ٧ .

الله صلى الله عليه وسلم : إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سماهم الله فاحذروهم » (١) .

وقد تعرض العلماء والدارسون للمتشابه - وخاصة في متشابه الصفات - وأخذ التأويل له منحنيات أو مناهج مختلفة ، بعد أن دخلت كثير من الأمم ذات الثقافات المختلفة في الإسلام ، وكثير من الفلسفات الأخرى بين العلماء المسلمين ، وكثر الإلحاد ، وتفرقت الأمة إلى فرق متعددة .

ولا شك أن ذلك أثرى الفكر الإسلامى بكثير من الإيجابيات وكثير من السلبيات ، تحتاج إلى الدراسة فى العصر الحاضر بروح معاصرة ، حيث إن العصر الحاضر قد فتح لنا كثيراً من الأبواب التى تتعارض مع بعض الأصول فى الفكر الإسلامى فى تأويل بعض الصفات للحقائق الغائبة عن حواس الإنسان ، حيث إنها تتعارض مع بعض الصفات لأعمال الإنسان فى العصر الحاضر ، مما اكتشفه من أسرار الطبيعة ، وما استثمره منها كصفات الكمبيوتر ، وصفات النقل الجوى ، والاتصالات ، وخارج الغلاف الجوى ، وغير ذلك كثير .

ولذلك إذا رجعنا بخيالنا إلى أهل تلك العصور السابقة ، وعرضنا بعض الصفات للمكتشفات والاختراعات فى العصر الحاضر على بعض تلك الأصول العقلية لإدراك حقائقها لن يكون لنا ولهم إلا التأويل الخاطئ ، بل وربما المضحك لتلاميذ العصر الحاضر .

ولك أن تتصور التأويلات فى القرن الثالث أو الرابع الهجرى للعبارات التالية :

(١) رواه مسلم فى كتاب العلم ، باب النهى عن متشابه القرآن ، ج ٤ ، ص ٥٣ .

- الطائرة تسير بين مكة وبيت المقدس بوقت يعادل ما بين وقت صلاة المغرب وأول وقت صلاة العشاء ، حاملة خمسمائة راكباً من الناس .

- استلمت رسالة من أخى فى المغرب الأقصى فى خلال برهة من الزمن تعادل قراءة البسمة .

- شاهدت أخى قبل قليل فى بيت المقدس بصحة جيدة .

- دونت ما يساوى ١,٠٠٠,٠٠٠ مصحفاً فى قطعة من الحديد بحجم الإبهام .

وهنا تدرك بجلاء أن إدراك أو التعبير عن حقائق الأشياء الغائبة يجب أن يقف على معانى ودلالات تلك الألفاظ ، وإن إنسان اليوم هو إنسان أمس فيما تحدث عنه القرآن من الحقائق الغائبة عن حواسه .

وهذا ليس إنكاراً للعقل الإنسانى وأهميته ودوره ، أو تحديد لقدراته ، ولكن ذلك ما يتفق مع طبيعة العقل فيما لم تقع عليه الحواس .

كما أن ذلك ليس فيه تحديد للعقل فى فرض الفرضيات النظرية ، التى تتعلق ببعض الحقائق الغائبة ، مما يمكن أن يخضع اليوم أو غداً للتجربة أو للحواس ، والتى تشكل مطلباً علمياً للإنسان فى الحياة الدنيا ، والله أعلم .

المبحث الثانى عشر

الحكمة من وجود المتشابه :

إن لوجود المتشابه فى القرآن على دلالة القراءتين حكم كثيرة ، فنجمل بعضها منها فى النقاط الآتية :

١- الحث على النظر والتأمل والتفكير الموجب للمعرفة والعلم باستثمار ما فطر الله تعالى عليه الإنسان من حب للاستطلاع ، والحاجة تقدر الفكرة .

وإذا كان القرآن دستور الشريعة الإسلامية ، وهو دستور الأمة فى كل عصر ، والاجتهاد مطلباً يتفق مع خصائص الإنسان ومعارفه فى كل عصر ، فإن هنالك كثيراً من العلوم التى اشتمل عليها القرآن فى أصولها وقواعدها أو مسائلها الكلية أو الجزئية ، فى البنية العقدية أو البنية العقلية والنفسية أو فى البنية الاجتماعية ، فكانت نوراً يهتدى بها علماء الإسلام فى كل زمان ومكان .

٢ - البناء العقلى والعاطفى للمجتمع الإسلامى ، وخاصة العلماء ، حيث إن الله تعالى قد دعا الإنسان فى كتابه العزيز إلى أن يقتحم عالمه الفسيح الذى استخلفه فيه ، كما أن الله تعالى قد جعل بعض النصوص القرآنية ظنية الدلالة للنظر والاجتهاد ، والذى يشرى المجتمع والعلماء بكثير من الاحتمالات فى دلالة النصوص ، وكذا تعدد الآراء والترجيحات المختلفة ، مع كل احترام وإجلال لكل تلك الاحتمالات والآراء ، وهذا فيه رياضة للبنية العقلية فى المجتمع الإسلامى ، لتحريك العقول إلى مزيد من الجد والاجتهاد للتفكير والنظر لتحصيل العلوم ، واستثمار الطاقات ، والبعد عن الجهل والتقليد .

قال تعالى (قل هل يستوى الذين يعلمون والذى لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب قل يا عباد الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة وأرض الله واسعة إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) (٢) .

٣ - إن فى وجود التشابه فى القرآن الذى لا يدركه إلا العلماء ، ما يدعو الأمة إلى امتثال أقوال العلماء ، فهم ورثة الأنبياء ، واحترامهم وإجلالهم ، ووضعهم فى مكانتهم الاجتماعية العالية فى قيادة الأمة ، حتى تتجنب الزلل والتخبط فى فعاليتها العقدية والاجتماعية والاقتصادية .

(١) انظر : التفسير الكبير للفخر الرازى ، ج ٧ ، ص ١٨٥ - ١٨٦ .

مشكل القرآن لابن قتيبة ، ص ٦٢ .

مناهل العرفان للزرقانى ، ج ٢ ، ص ٢٨٢ - ٢٨٥ .

(١) سورة الزمر ٩ - ١٠ .

ولذلك تتعد وتحذر أقوال أهل الجهل والضلال والزيف ، الذين يتبعون ما تشابه من القرآن دون محكمه للتشكيك والتلبيس والشبهة وإثارة الفتنة بين المسلمين .

٤ - ابتلاء العباد وامتحانهم فى الوقف على ما استأثر الله تعالى بعلمه ، كحقائق الأشياء الغائبة - المغيبات - مما لا يمكن إدراكه أو التعبير عنه ، أو رحمة من الله تعالى بعباده كوقت قيام الساعة وأجل الإنسان ، وهذا مما يعرفه العلماء الراسخون فى العلم .

ولذلك كان منهم التفويض فى أمر علم ما استأثر الله تعالى بعلمه ، والإيمان بالغيب هو حجر الأساس للإيمان بأركان الإيمان .

قال تعالى (ألم ، ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون) (١) .

٥ - إن القرآن جاء بما يتفق مع قدرات الإنسان وإمكانياته فى القدرات العقلية والنفسية ، حيث إن التصور والتخيل عنده يرتبط بعالمه المحسوس ، والقرآن قد اشتمل على كثير من القضايا المهمة بالنسبة له مما لا يمكن أن يحيط به ، ولا غنى له عنه ، كالمعرفة بوجوده وبخالقه ، أو علاقته بخالقه ، وكذا معرفته بالوجود أو علاقته بالوجود كله ، ومصيره .

وهى موضوعات مهمة فى العقيدة تعمل على تزكية النفوس والسمو بها ، للالتزام بالتكليف وعمارة الأرض .

قال تعالى (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم) (٢) .

(١) سورة البقرة ١ - ٣ .

(٢) سورة المجادلة ٧ .

٦ - إذا كان الله تعالى قد دعا إلى العلم والعمل فهما من أعلى أبواب العبادة له سبحانه وتعالى ، والمتشابه باب من أبواب البحث عن دقائق القرآن ، والذي يصاحبه كثير من المشقة ، التي تعنى مزيداً من الأجر والثوبة .

عن عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر » (١) .

وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة : إلا من صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » (٢) .

٧ - إن الإيجاز والخفاء في القرآن ، الذي يدركه العلماء الراسخون في العلم قد يسر حفظه والمحافظة عليه ، وتناوله ، مع اشتماله على كثير من المعاني ، مما يستفاد من أصل كلام الله تعالى ، أما لو كان القرآن كله محكماً لا حتاج إلى كثير من المجلدات يتعذر معها حفظه ، وكذا سد باب الاجتهاد للعلماء والأمة ، وهو مطلب يتفق مع طبيعة الإنسان الذي أكرمه الله تعالى بالعقل .

قال تعالى (ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً) (٣) .

وقال تعالى (قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً) (٤) .

(١) رواه البخارى فى كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب أجر الحاكم إذا اجتهد ، ج ٨ ،

ص ١٥٧ .

(٢) رواه مسلم فى كتاب الوصية ، حديث ١٤ ، ج ٣ ، ص ١٣٥٥ .

(٣) سورة الإسراء ٧٠ .

(٤) سورة الكهف ١٠٩ .

٨ - إن القرآن معجزة لكل زمان ومكان ، والإنسان مخاطب به بلسان عربى مبين ، بما يتفق مع إدراكاته البشرية ، دون أن يثير مشكلة أو معضلة عقلية فى كل عصر ، بل كتاب هداية لكل عصر ، وأدهش عقول أهل كل عصر بما اشتمل عليه من معجزات ، كالإعجاز العلمى فى كثير من التخصصات كالطب والفلك وعلوم البحار .

قال تعالى (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين) (١) .

وقال تعالى (هو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون) (٢) .

وقال تعالى (مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان) (٣) .
وقال تعالى (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد) (٤) .

وإن من أبواب الإعجاز فى القرآن الخفاء فى المعانى بما اشتمل عليه من إسرار بدیعة ومعان تدرك بعد عناء وتأمل وتفكير العلماء .
قال تعالى (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) (٥) .

٩ - إن وجود المتشابه فى القرآن يعد باباً من ابواب الدعوى إليه ، لأن أهل كل دين أو ملة سيجدون فى ما يدعو إلى النظر فيه بمحاولة التصدى له ، دفاعاً عن دينهم وملتهم .

(١) سورة المؤمنون ١٢ - ١٤ .

(٢) سورة الأنبياء ٣٣ .

(٣) سورة الرحمن ١٩ ، ٢٠ .

(٤) سورة فصلت ٥٣ .

(٥) سورة النساء ٨٢ .

ولكنهم بعد النظر والتأمل والتفكير سيرون كتاباً منزلاً من عند حكيم
خبير ، فيكون له شاهد من أهل كل دين وملة ، كما يكون شاهداً على ملته
ودينه .

قال تعالى (أَلَمْ تَرَ أَنَّ آيَاتِ الْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ
تَعْقِلُونَ) (١) .

١٠ - إن وجود المتشابه في القرآن يكشف من في قلبه زيغ ، لأنه قد
يرى في وجوده رغبة أو شهوة لديه بما يتفق مع مذهبه ، أو ما يشبع أهواءه
وشهواته ، أو ما يبرر به ما هو عليه من ضلال .

بل قد يكون دليلاً وعلامة على الكفر والنفاق لمحاولته التشكيك
والتلبيس ، والصد عن سبيل الله ، وإثارة الفتنة بين المسلمين .

قال تعالى (فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ
الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ
آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ) (٢) .

(١) سورة يوسف ١ - ٢ .

(٢) سورة آل عمران ٧ .

أهم المصادر والمراجع

- القرآن الكريم .
- الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ، دار الفكر ببيروت .
- أساس البلاغة للإمام ابن عمر الزمخشري ، بيروت ، ١٣٨٥ هـ .
- الأسماء والصفات للإمام أبى بكر البيهقي ، دار إحياء التراث العربى ببيروت .
- الإنسان وجوده وخلافته فى الإرض للمؤان الناشر مكتبة وهبة بالقاهرة .
- البرهان فى علوم القرآن ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الفكر ، ط ٣ ، ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م .
- تفسير التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر بن عاشور ، الدار التونسية للنشر والتوزيع ، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م .
- تفسير الإمام الطبرى ، جامع البيان عن تأويل آى القرآن ، تحقيق محمود شاكر ، دار المعارف بمصر ، ط ٢ .
- تفسير الإمام القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، دار الشعب بمصر .
- التفسير الكبير للإمام فخر الدين الرازى ، مفاتيح الغيب ، دار الفكر ، ط ١ ، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م .
- تفسير الإمام ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، المكتبة التجارية الكبرى بمصر .
- دراسات فى علوم القرآن ، د. أحمد بكر إسماعيل ، دار المنار ، القاهرة ، ط ١ ، ١٤١١ هـ / ١٩٩١ م .
- صحيح البخارى ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، المكتبة الإسلامية بتركيا .
- صحيح مسلم ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربى ببيروت .

- فتح القدير للإمام الشوكاني ، مكتبة مصطفى البابي الحلبي بمصر ، ط ٢ ، ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٤ م .
- فرقان القرآن بين صفات الخالق وصفات الأكوان للشيخ سلامة القضاعي ، دار إحياء التراث العربي ببيروت .
- فضل علم السلف على الخلف لابن رجب الحنبلي ، مكتبة الكليات الأزهرية .
- فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة للشيخ محمد الغزالي ، ط ١ ، ١٣٢٥ هـ ، القاهرة .
- القراءات القرآنية ، د . عبد الرحمن إبراهيم المطرودي ، الناشر جامعة الملك سعود ، كلية التربية ، مركز البحوث .
- القطع والاستئناف للإمام أبي جعفر النحاس ، تحقيق المؤلف ، الناشر دار عالم الكتب ١٤١٣ هـ .
- المحكم والمتشابه ، د. محمد التومي ، الشركة التونسية ، ١٩٨٠ م .
- المستصفي من علم الأصول لمحمد الغزالي ، ط ١ ، ١٣٢٤ هـ ، القاهرة .
- تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ، تحقيق أحمد صقر ، دار إحياء الكتب العربية ببيروت .
- المفردات في غريب القرآن للإمام الأصفهاني ، دار المعرفة ببيروت .
- مناهل العرفان في علوم القرآن للشيخ محمد الزرقاني ، دون ذكر للناشر أو سنة النشر .
- الكشف للإمام الزمخشري ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة .
- اللآلئ الحسان في علوم القرآن ، د. موسى شاهين ، مطبعة الفجر الجديد بمصر .